شكيب إرسلان
وسياسةُ إيطاليا في العالمِ العربي

أ. د. علي شعيب
رئيس الجامعة الحديثة للإدارة والعلوم

تقديم

ما امتاز به الأميرُ شكيب إرسلان من استعدادٍ فطريٍّ وثقافةٍ واسعةٍ، مضافين إلى مقام بيته في الزعامة والأصالة، رفعه إلى مكانةٍ عاليةٍ في بلاده، وسمح له بسهولة الاتّصال المبكر بالنُّخب الفكرية، والأدبية، والدينية، والسياسية في العالمين العربي والإسلامي. ويظهر أن شَـدْوَ الأميرِ الأدبَ يافعاً دَفَعَهُ إلى الاتّصال بأرباب الأقلام، والولوج إلى إدارات الصحف، إذ يُذكر أن أوّلَ من التقاهم هو يعقوب صروف أحدُ صاحبي جريدة المقتطف القاهرية.

تعلَّم الأميرُ في مدرسة الحكمة في بيروت، حيث كان من أساتذته الشيخُ عبد الله البستاني العالمُ اللُّغويُّ ومؤلِّفُ معجم (البستان). بعد أن غادر الأميرُ مقاعدَ الدراسة، وشهرتُهُ الأدبيةُ آخذةٌ في النبوغ، لما تنشره الصحف من آثاره، شعراً ونثراً، قام برحلةٍ إلى مصر وتركيا. فلما جاء الأميرُ القاهرةَ في العام ١٨٩٠، لازم الشيخَ محمد عبده وحلقَتَه الحافلةَ بنوابغ ذلك الجيل، وبينهم علي الليثي، وسعد زغلول، وحفني ناصيف، وأحمد زكي. واتَّسعت أيضاً معرفةُ الإرسلاني بجماعةٍ من النُّخب الفكرية المصرية، والمقيمين في مصر من الأعـلام، ومنهم عمر طوسون وأحمد شوقي. أما في عاصمة السلطنة العثمانية، فقد لازم شكيبُ إرسلان الشيخَ جمال الدين الأفغاني[١]، واستفاد كثيراً من توجيهه وتلقينه.

---

(١) رفائيل بطي، شكيب إرسلان ١٨٦٩ ـ ١٩٤٦، مصر: مجلة الكتاب، م٣، ج٤، شباط ١٩٤٧، ص٥٦٧.

١- إرسلانُ النهضويُّ في خدمة القضية العربية الإسلامية

يعتبر مُتتبِّعو أعمال إرسلان أنه استقى من ينبوعي النهضة، الأفغاني وعبده، الرسالةَ الاستنهاضيةَ والإصلاحيةَ التي حملها، ولازمته نصف قرن. فقد شغلت إرسلانَ ثنائيتان: الأولى ثنائية الشرق/ الغرب، والثانية ثنائية النهوض/ الانحطاط، وإن يكن الانحطاطُ من علل الغلبة الأوروبية، فإن الاعتصامَ بحبل الوحدة يُخرِج من فضاعة الهزيمة.

ولم يقتصر دورُ إرسلان على الرسالة الاستنهاضية والإصلاحية لبني قومه العرب والمسلمين، بل انخرط في ميادين القتال، شأنه شأن الضابط والجنود. فعندما غزت إيطاليا ممتلكات السلطنة العثمانية في طرابلس الغرب، ونشبت الحرب بين الدولتين في العام ١٩١٠، لم يكن الأمر حدثاً عابراً عند شكيب إرسلان وغيره من قادة الرأي الشامي، بل صوتاً سياسياً مُهمّاً، إذ أثار موجةً من النّقاشات السياسية في أوساطهم حول مصير سوريا، والمشاريع التي تنتظرها، لأن الهجمة الإيطالية على ليبيا كانت تحظى بالدّعم الأوروبي، وكانت مؤشّراً لحلقاتٍ ستتتابع في المناطق العربية الأخرى. وما يستوقف في هذا الحدث، كلامُ شكيب إرسلان إلى السيد رشيد رضا حيث يقول: «ونحن الآن في خَطْبٍ مستعجل الرأي، لا يفيدنا فيه تعنيفُ مُفرِّطٍ، ولا لومُ مُقصِّرٍ، ولا جزاءُ خائفٍ أو مستهترٍ... إنه لم يبقَ إلا طريق البَرّ للإغاثة، ومهما كان شاقّاً وصعباً، طويلاً مُعطشاً، فإنه هو الوصلُ الوحيدُ، فإن لم تساعد السياسةُ على إمرار جنودٍ منظَّمةٍ، فلا أقلَّ من مُتطوِّعةٍ، لا أقلَّ من تسريب ذخائر وأرزاقٍ على ظهور الجِمال... إن هناك رجالاً كثيرةً، وفروسيةً ونجدةً، وبغضاء للعدُوِّ، ولدى الدولة عِدَّةُ آلافٍ من الجُند، وأسلحةٌ وعُدَّةٌ، إنما يُخشى على أولئك من الجوع وقلّة الطعام، أفلا ينهض الإسلام في كل هذه المسائل إلى إغاثتهم بما يُمسِكُ أرماقهم على الأقل حتى تطولَ الحربُ ويستمرَّ الدفاع. فإن طول الحرب يستدعي تدخُّلَ الدول، ويغثُّ في عضد تجارة إيطاليا، ويثير عليها ناكرَ سكانها»[(١)]. لم يقل الأميرُ هذا الكلامَ ليقعدَ بعده متفرّجاً، بل سار على رأس متطوِّعةٍ إلى ليبيا برفقة القائد العثماني أنور باشا، فأبلى في الجهاد بلاءً حسناً، في سداد المشورة وإصابة الفكرة. وقد نُقِلَ عن الزعيم الطرابلسي سليمان باشا الباروني قوله: «لو أخذت الحكومة العثمانية بتفاصيل الخطّة التي رسمها شكيب إرسلان ونفّذتها بحذافيرها، لما ضاع الأمل في إنقاذ

(١) هاني فحص، شكيب إرسلان والقضية الفلسطينية، بحثٌ قدِّمَ في ندوة الأمير شكيب إرسلان في المعهد العالي للدراسات الإسلامية، جمعية المقاصد في بيروت، ٢٧-٢٨ تموز ٢٠٠٢، ص٤.

طرابلس وبرقه، أو لاستطعنا على الأقل إطالة الحرب ثلاث أو أربع سنواتٍ أخرى»[(١)]. أثبتَ الأميرُ رأيَه في انسلاخ طرابلس الغرب وحرب إيطاليا، في ملحق الجزء الأول الذي كتبه تعليقاً على «تاريخ ابن خلدون». كذلك أحدث انخراطُ الأمير في الحرب الليبية ضد الغزو الايطالي، والدعوة للدَّعم الشّاميِّ لها، ردَّةَ فعلٍ قويةً في روما، إذ قصف الأسطول الإيطالي مرفأ بيروت، وهدَّدَ ميناء كلٍّ من مدينتي طرابلس وصيدا، ما أوقع أضراراً وأحدث ذعراً عند الأهلين[(٢)]. كان الهدفُ الإيطاليُّ الحؤولَ دون انتقال المُؤَن إلى الجيش العثماني في طرابلس الغرب، إذ المفترَضُ أن تنطلق من هذه الموانئ المُستهدَفَة. غير أن حقيقة الأمر أبعدُ من ذلك، إذ كان القصف يستهدف الموقفَ الشعبيَّ المحرِّضَ والداعمَ للسلطنة العثمانية في مواجهة الغزو الإيطالي.

وبخلاف مفكّري عصر النهضة العروبيين والإسلاميين، تميَّز الأميرُ شكيب إرسلان، في هذه المرحلة، بإعطاء الأولوية لموقف تدعيم السياسة الخارجية للسلطنة العثمانية، لكي تتمكّن من مواجهة الضغوط الأجنبية الهادفة إلى إضعافها وتفكيكها. وفي العام ١٩١٢ قصد الأميرُ عاصمةَ الخلافة الإسلامية، ولمّا اندلعت حرب البلقان، كُلِّفَ بالقيام على رأس بعثات الدولة العثمانية في هذه الحرب. ويبدو أن الأميرَ شكيب إرسلان كان راضياً مطمئنَّ النفس عن سلوكه السياسي في هذه المرحلة، وقد ورد في قصيدةٍ له ما يصفُ موقفَه هذا:

سيعلمُ قومي أنني لا أغشُّهمْ ... ومهما استطال الليلُ فالصبحُ واصلُهْ[(٣)]

ويتَّضح أن موقفَ إرسلان في هذه المرحلة كان موضعَ تفهُّمٍ لدى النخب العربية والإسلامية، التي لم تلبث أن انخرطت معه بعد الحرب العالميةِ الأولى، في الجهود الرامية لمواجهة الغزو الأوروبي المباشر، بل احتلّ بينهم مكاناً قيادياً.

٢- المصالحةُ بين إرسلان والحكومات الإيطالية الاشتراكية ١٩٢٠-١٩٢٢

دخلت إيطاليا الحربَ العالميةَ الأولى متأخرةً - أيار ١٩١٥ - إلى جانب الحلفاء، بعد إبرامها اتفاقيةً مع بريطانيا لقاء مكاسب إقليميةٍ في السلطنة العثمانية. وبعد النصر الذي

(١) رفائيل بطي، شكيب إرسلان ١٨٦٩-١٩٤٦، م. س، ص٥٦٩.

(٢) علي عبد المنعم شعيب، الصراع الإيطالي الفرنسي على بلاد الشام ١٨٦٠-١٩٤١، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٢، ص٧٠.

(٣) رفائيل بطي، شكيب إرسلان ١٨٦٩-١٩٤٦، م. س، صص٥٦٨-٥٦٩.

تحقّق لهم في الحرب، انهمك الحلفاءُ في ترتيب أوضاع تركة السلطنة العثمانية دون لحظِ دورٍ لروما. فقد تبيَّنَ، من خلال سير المداولات في أروقة مؤتمر فرساي للسلام في باريس، تهميشُ دور إيطاليا، إذ إن الحساباتِ البريطانيةَ ـ الفرنسيةَ كانت لترتيب أوضاع عالم ما بعد الحرب الذي يرتكز على ثلاثة عوامل أساسية:

- كسب تأييد الولايات المتحدة الأميركية.
- وضع خططٍ لمواجهة تمدُّد الخطر الشيوعي.
- تحجيم دور مصطفى كمال أتاتورك الذي أنعشت انتصاراتُهُ آمالَ الشعوب الشرقية، إذ رأت فيه مُنقِذاً من استعباد «الجيش الاوروبـي»، فعرضت عليه إيران وأفغانستان عَقْدَ معاهدةٍ دفاعية. أما المحيطون بالأمير فيصل في دمشق، فكانوا يحضُّون على عقد اتفاقٍ بين العرب وأتاتورك، وذلك للقتال جنباً إلى جنبٍ للحيلولة دون تحكُّم الفرنسيين في بلاد الشام[1]. وكان شكيب إرسلان، عشية انتهاء الحرب الأولى، قد بعث برقيةً إلى كل الدول المشاركة والمحايدة في الحرب، يعترضُ فيها على تجزئة سوريا بين بريطانيا وفرنسا...، وهذا ما يؤكّد، بالنسبة للأمير، بأنها حربٌ للفتح والضّم. وختمَ بأن سوريا ستبقى عثمانيةً بموجب مبدأ الرئيس الأمريكي ولسون، واقترحَ استفتاءً حرّاً...»[2].

وحسب الأرشيف الفرنسي، فإن اجتماعاً عُقِدَ في ١٢ آب ١٩٢٢ في territet بهدف وضع أُسُسٍ لاتفاقٍ سريٍّ عربيٍّ ـ تركيٍّ. وقد مثَّل الجانبَ السوريَّ الأميرُ شكيب إرسلان السكرتير العام للمؤتمر السوري الفلسطيني[3].

أدّى الإحباطُ الإيطاليُّ في مؤتمر فرساي إلى قيام حكوماتٍ اشتراكيةٍ في روما بين أعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢، حيث راحت تنتهج سياسة الانكفاء على الذات، وفضَّلت التعاونَ السِّلميَّ مع الدول الكبرى ومستعمراتها. وطالبت المعارضةُ الإيطاليةُ لاحتلال ليبيا من حكوماتها توخّي الحذر في سياستها. وفي ٢٠ حزيران ١٩٢٠، وَضَعَتْ هذه المعارضةُ، بالاتفاق مع الفيدرالية العامة للعمل وقيادة الحزب الاشتراكي الإيطالي، مُذكِّرةً تطالب الحكومةَ في روما باللّجوء إلى كل الوسائل كي لا تنخرطَ البلادُ مجدَّداً في مغامراتٍ

(١) بناء الدولة الحديثة، تجربة فيصل بن الحسين في سوريا والعراق، إعداد وتحرير هند أبو شعر، الأردن: منشورات جامعة آل البيت، ١٩٩٩، ص٥٢٤.

(٢) Antoine Hokaym et al., *Documents diplomatiques français relatifs à l'histoire du Liban et de la Syrie à l'époque du mandat 1914-1946,* Beyrouth, Les éditions universitaires du Liban, tome 1, n 361, 1918, p. 389.

(٣) Ministère des affaires étrangères françaises, Syrie - Liban, 1918-1929, Vol . 208, pp. 68-69.

حربية[1]. هذا المنحى الإيطاليُّ السِّلميُّ، تُرجِمَ بدعم حكومة الأمير فيصل في دمشق عشية معركة ميسلون في ٢٠ تموز ١٩٢٠، وبناءً على طلب الأمير، اجتمعت هيئةُ القناصل في القنصلية الإيطالية في دمشق، بدعمٍ من رئيس الوزراء الإيطالي الكونت Seforza، حيث عبَّرَ الماركيز De Paterno القنصلُ العامُّ الإيطاليُّ عن استنكاره لما يُبيَّتُ ضد سوريا[2].

إن الإحباطَ الإيطاليَّ من تداعيات الحرب العالمية، تَزَامنَ مع إحباطٍ أكبر في الجانب العربي والإسلامي. فقد راحت النُّخَبُ العربيةُ، السياسيةُ والعسكريةُ، تلتقي في دمشق حول الأمير فيصل بهدف إقامة دولةٍ عربيةٍ في بلاد الشام، دولةٍ تذوب فيها كلُّ الولاءات لصالح الفكرة العربية. ولهذه الغاية، أعلنت عن قيام حزب الاستقلال العربي في ٢٠ كانون الأول ١٩١٩[3]، كوريثٍ لجمعية العربية الفتاة، التي كانت سَبَّاقةً في طرح فكرة إنشاء تشكيلاتٍ شعبيةٍ مساندةٍ، مهمتها الدفاع الوطني. ويُعتَبَرُ شكيبُ إرسلان من مؤسِّسي هذا الحزب، ومن أبرز الشخصيات العربية التي أدَّت دوراً مُمَيَّزاً خلال الحرب الأولى، ووقف موقفاً معادياً تجاه دول الاستعمار التقليدية... . وقد انصبَّ جهدُهُ على رؤية الإسلام قادراً على التصدّي لأوروبا، فنظر إلى علاقة الشرق بالغرب على أنها علاقةُ صراعِ حياةٍ أو موت. مَقتَ الاستعمارَ البريطانيَّ، معتبراً إياه من أسوأ أنواع الاستعمار، في حين وصف الفرنسيَّ بأنه أشدُّ بربريةً، ويأتي بعده الاستعمار الإيطالي.

لـم يَحُـل الدَّعـمُ الإيـطاليُّ للجماهير العربية الإسلامية في معركة ميسلون، ٢٠ تموز ١٩٢٠، دون سقوط أوّل تجربةٍ حكوميةٍ عربيةٍ في الشرق، والذي ترتَّب عليه أيضاً مغادرةُ العديد من كوادر حزب الاستقلال العربي إلى شرقي الأردن، وفريقٍ آخر إلى مصر وبلدان أوروبا، حيث التقوا الأميرَ شكيب إرسلان، وشكّلوا فريقَ عملٍ عُرِف بنشاطه على الصعيدين العربي والعالمي، وبديناميكية أعضائه ومرونتهم السياسية لجمع الصفوف العربية. وبمبادرةٍ من هذا الفريق، عُقِدَ مؤتمرٌ للأحزاب والجمعيات العربية في جنيف في ٢٥ آب ١٩٢١، وكان من بين الحضور، ميشال لطف الله، والسيد رشيد رضا، والأمير

(١) «مخطرةٌ» مُقدَّمةٌ من قبل كاتب حزب الاستقلال العربي في دمشق إلى الوفد الأميركي من اللجنة الدولية بتاريخ ٢٨ حزيران ١٩١٩ ـكراس.

(٢) J. l. Miege, *L'impérialisme colonial italien de 1870 à nos jours*, Paris, Société d'édition d'enseignement supérieur, 1968, p.119.

(٣) زين نور زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان، بيروت: دار النهار، ط٢، ١٩٧٧، صص١٦٥ـ ١٧٥ـ ١٧٦.

شكيب إرسلان، وسليمان كنعان، ورياض الصّلح، وإحسان الجابري. وضع المؤتمِرون توحيدَ صفوف الحركة الوطنية في سوريا هدفاً لهم، وبذلوا المساعي لدى أعضاء عصبة الأمم لتأييد المطالب السورية. وفي ختام المؤتمر انتخبت اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري ـ الفلسطيني وفداً دائماً لدى عصبة الأمم، برئاسة شكيب إرسلان، وعضوية إحسان الجابري وسليمان كنعان ورياض الصّلح(١).

بعد المؤتمر برز الدَّوْرُ المُميّزُ لشكيب إرسلان من خلال تجواله في عواصم القرار في أوروبا، وبالتحديد مع إيطاليا. وكذلك في تواصله مع القوى الوطنية في البلاد العربية. وقد أسَّسَ أكثرَ من نادٍ، وترأَّسَ أكثر من مؤتمرٍ في سبيل خدمة القضايا العربية والإسلامية. وكرئيسٍ لحزب الاستقلال العربي، وقَّعَ إلى جانب رئيس بلدية عمان، سعيد باشا، في ٢٠ أيلول ١٩٢٠، برقيةً مُوجّهةً إلى عصبة الأمم في جنيف باسم الأحزاب السياسية، والجمعيات الوطنية، وبعض الزعماء السوريين الذين اجتمعوا في عمان، يُندِّدون فيها بالسياسة الفرنسية المُتَّبعة في بلاد الشام، وتُعبِّر عن أسف المجتمعين لتراجع الحلفاء عن وعودهم بالاستقلال(٢).

من جهةٍ أخرى، استغلَّ شكيبُ إرسلان ما نُقِلَ عن مصدرٍ مُطّلِعٍ على القضايا الإيطالية، والذي يؤكّد «أن الرأي العام الإيطالي لا يريد سماع حملاتٍ استعمارية، وإن كانت عملياتٍ بسيطةً ذات طابعٍ بوليسيٍّ»(٣)، فقام بتأسيس فرعٍ في روما لرابطة الشعوب الإسلامية المقهورة التي تتّخذ من برلين مقرّاً لها، والتي كان يترأَّسُها. وكان إرسلانُ يهدف إلى القيام بحملةٍ شاملةٍ تساهم بجلاء إيطاليا عن ليبيا.

وجد التوجُّهُ الإيطاليُّ السِّلميُّ تجاوباً إيجابياً عند القيادات العربية والإسلامية، وهذا ما سهَّل قيام جسور اتّصالٍ مبكرةٍ بينهم وبين النظام الاشتراكي. وكان انعقادُ مؤتمر شعوب الشرق في جنوى ـ أيار ١٩٢٢ ـ مناسبةً للقوى السياسية الشّامِيَّة، لإيصال وجهة نظرها للرأي العام الإيطالي، ولقواه السياسية. انعقد المؤتمر بالتعاون مع اتّحاد شعوب الشرق المقهورة، بهدف إيجاد أرضيةٍ للوحدة لكل الشعوب، وخَلْقِ جبهةٍ مشتركةٍ ضد الغرب

---

(١) علي المحافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ـ ١٩٤٥، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥، صص١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) Ministère des affaires étrangères françaises, S. D. N., Volume 599, fol - 117-118, le 7 octobre 1924 (M.A.E.F.).

(٣) J.l. Miege, Op. cit., p.119.

الاستعماري، ولإزالة الانتداب، والاعتراف باستقلال كلّ شعوب الشرق، وجلاء كلّ الجيوش الأوروبية، وقبول بلدانهم في عصبة الأمم(١). حضر المؤتمرَ مندوبون للبلدان الآتية: الأناضول ـ مصر ـ إيران ـ سوريا ـ فلسطين ـ أفغانستان ـ دول بخارى ـ أذربيجان ـ كييف ـ الهند. تمثَّلت بلادُ الشامِ في المؤتمر بلجنةٍ مُفوَّضةٍ عن المؤتمر السوري ـ الفلسطيني، قوامها شكيب إرسلان، إحسان الجابري، سليمان كنعان، وميشال لطف الله. ترأَّسَ إرسلانُ جلساتِ المؤتمر، وقدَّم الوفدُ الشاميُّ مذكرةً تطالب برفض الانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان. كما رفع الوفدُ إلى المؤتمر مُذكّرةَ البورجوازية السورية المستنكرة لممارسات الانتداب الفرنسي التعسُّفية، ولا سيما مسؤوليته في كساد التجارة، وأزمة الصناعة المحلية. تواصل الوفدُ الشّاميُّ خلال إقامته برجال السياسة الإيطاليين، ولا سيما الحزب الفاشي، حيث استصدر منه تصريحاً باستنكار ممارسات الفرنسيين، وبالاعتراض على فرض الانتداب. وكانت علاقةٌ تربط شكيبَ إرسلان برئيس الحزب الفاشي موسوليني، عندما كان الأخيرُ محرِّراً في جريدة البوبلو دي إيطاليا، التي كان يَرِدُ فيها الدفاعُ عن استقلال سوريا(٢).

وحسب الأرشيف الفرنسي، فإن اجتماعاً عُقِد في لوزان في ١٩ أيلول ١٩٢٢، ضمّ مصريين، وسوريين، وفُرْساً، وأذربيجانيين، وبخاريين، وتركماناً، وأتراكاً، وهنوداً وغيرهم، للدفاع عن استقلال بلادهم. ويُحمِّل المصدرُ الفرنسيُّ شكيبَ إرسلان المسؤوليةَ لدوره في انعقاد المؤتمر(٣).

أدّت تطوراتٌ داخليةٌ في روما إلى انحسار عدد المؤيِّدين لسياسة الحكومة الاشتراكية فيها لصالح توجُّهات الأحزاب القومية الاستعمارية، وخصوصاً الحزب الفاشي بزعامة موسوليني، مما أهَّلَهُ لتولِّي الحكم في إيطاليا في ٢٢ ت١ ١٩٢٢.

علاقةُ شكيب إرسلان بموسوليني بين مدٍّ و جزرٍ

فور تولّي موسوليني السلطةَ أظهر اهتماماً خاصّاً بالمسألة الاستعمارية. كان يبدو مُتحدِّياً، ومُجاهراً بالأمبراطورية التي ستشيدها إيطاليا، وهي بعثُ الأمبراطورية الرومانية حول المتوسط. وكان الدُّوق يشعر على نحوٍ متزايدٍ بأن الشرقَ مؤهَّلٌ لأن يصبح مسرحاً

---

(١) Revue du monde musulman, Paris, juin 1923, pp.36-37

(٢) جريدة لسان الحال، بيروت، ٢٢ أيار ١٩٣٥.

(٣) M.a. e.f. serie -Syrie - Liban. 1928-1929 -208, pp.68-69.

للتوسُّع الإيطالي، وأن الاحتكارَ الفرنسيَّ أمرٌ في غير محلّه. حاولَ أن يُظهر انطباعاً لدى بعض الدوائر العربية، بأن سياسة إيطاليا تجاه العرب ستتبدّل لصالح دعم القضايا العربية. تلازم ذلك مع تشجيع مواطنيه على تأسيس تشكيلاتٍ فاشيَّةٍ في مناطق عربيةٍ مستهدفة.

شجَّع الدَّوْرُ المتنامي لإيطاليا المعارضةَ الشاميَّةَ للتوجُّه إليها بالشكوى ضد ممارسات الانتداب الفرنسي. فقد رفعت لجنةُ المؤتمر السوري الفلسطيني برئاسة شكيب إرسلان، في العام ١٩٢٣، مذكِّرةً باسم المسلمين والمسيحيين إلى رئيس المؤتمر الاقتصادي الدولي في جنوى- إيطاليا، وإلى رئيس وزراء إيطاليا، ووزير خارجية روسيا، حيث عبَّرت عن الاستياء بالقول «... إن تظاهراتِ الولاء للفرنسيين التي دبَّرتها المفوضيةُ العليا... وتوزيعَ الأسلحة على بعض القرى، وتنظيمَ العصابات ضد المسلمين، والتعسُّفات الأخرى التي ارتكبتها السلطةُ المحليةُ، قد خلقت حالةً مخيفةً غير طبيعية»[1].

إن عودة الارتياح العربي للموقف الإيطالي، دفعت موسوليني للمجاهرة بطلب انتداب بلاده على سوريا. وعند اندلاع الثورة السورية في العام ١٩٢٥، تظاهر موسوليني بأنه المُدافعُ عن لبنان وسوريا المظلومتين من قِبَلِ أُممٍ أخرى. وأرسل الطرّادَ torpilleur للرسوِّ في بيروت تحسُّباً لأسوأ الاحتمالات، وبهدف إفهام فرنسا أنها عاجزةٌ عن حماية أمن الرّعايا الإيطاليين. لكن باريس اعتبرت أن تَصَرُّفَ إيطاليا لا يخلو من خلفيةٍ سياسيةٍ، وأنه يتعدَّى حمايةَ مواطنيها وتقديمَ العون للسوريين. فهي أكَّدت عزمَهَا على حماية كل الرعايا الأجانب. وبعد مداخلاتٍ مع الدُّوق جرى سحبُ الطرّاد. لكن في العام ١٩٢٦ استغلَّ موسوليني قدرةَ الثوّار السوريين على الصمود، ليشنَّ حملةً شديدةً على فرنسا، مطالباً بالبلاد السورية كمدىً حيويٍّ للشعب الإيطالي[2].

إرسلان يراهنُ على إيطاليا في مواجهةِ فرنسا وبريطانيا

خلال هذه المرحلة، تكوَّنت لدى شكيب إرسلان قناعةٌ راسخةٌ بأن البلدين الاستعماريين، فرنسا وبريطانيا، يُشكِّلان خطراً دائماً على العرب والمسلمين، وأن مواجهتَهُما تستدعي التنسيقَ مع إيطاليا الفاشية، ثم مع ألمانيا النازية، لأنهما، برأيه، ستكونان عوناً لنضال العرب والمسلمين. وبالفعل بدأت فاعليَّاتُ النشاطِ الفاشيِّ تبرز من خلال تأييد قوىً محليةٍ لهما في سوريا ولبنان، ويقول اسكندر رياشي في ذلك: «كنَّا، بنوعٍ

(١) أمين السعيد، الثورة العربية الكبرى، مج٣، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت، ص٢٧٢.

(٢) عادل اسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي، ج٥، بيروت: دار النشر للسياسة والتاريخ، ١٩٧٠، ص١٤.

خاصٍّ، نجد في البيت الإيطاليِّ في بيروت ترحاباً أكبر جداً من التّرحاب الذي كنّا نراه في المفوضية السامية، مع أننا كنّا معدودين على الفرنسيين... وكانت يقظةُ الطليان العجيبةُ، بحيث استطاعت أن تجذب أكثر العارفين، أهل السياسة والصحافة، إليها، إذ ظهرت أعجوبةٌ في سمائنا - وخصوصاً في بحرنا - فأدهشتنا جميعاً واستكبرناها كثيراً»[1].

وفي هذه السياق، كان الوفدُ الإيطاليُّ في عصبة الأمم في جنيف برئاسة الماركيز Theodoli يدعم القضايا العربية، ما دفع المندوبَ الفرنسيَّ روبير ديكيه للتدخّل لدى روما كي تعطيَ مندوبَها تعليماتٍ لتغيير مواقفه المعادية لمصالح بلاده. وكانت باريس تتّهم شكيبَ إرسلان بتحريض الإيطاليين للمطالبة بالانتداب على سوريا، وذلك أثناء تواجده في العاصمة الإيطالية، وأنه تَلَقّى مبلغاً من المال مخصّصاً لنشر كتابٍ عن النضال الوطني السوري، وأنه كان يأملُ من إيطاليا مساعدتَه لتحقيق وحدة البلاد واستقلالها، ومساعدةَ اللجنة السورية الفلسطينية للمطالبة بالاستقلال، مقابل إعطاء وعدٍ للطليان بأن يكون لهم تأثيرٌ في سوريا، وربما عرض عليهم المطالبةَ بالانتداب عليها، أو منحهم مونوبولاً اقتصادياً ومالياً وتجارياً، وكذلك قاعدةً بحرية[2].

لم ينكر شكيب إرسلان علاقته بالإيطاليين، لكنه رفض الاتّهامَ الفرنسيَّ. فقد نشرت صحف جنيف، بتاريخ ١٩ تشرين الأول ١٩٢٦، بياناً له كذَّبَ فيه بشدَّةٍ ما أُشيعَ عن مقابلته السنيور غراندي، والسنيور تيودلي رئيس لجنة الانتدابات الدائمة في عصبة الأمم، وطلبه منهما تحويلَ الانتداب الفرنسي على سوريا إلى انتدابٍ إيطالي[3].

وفي مرحلة ما بعد معاهدة لاثيران ١٩٢٩ بين إيطاليا والفاتيكان، شهدت روما تحرُّكاً ملحوظاً تناولته الصحف المحلية الشامية. وفي نهاية تموز ١٩٣٠، كتب مدير جريدة النداء، كاظم الصلح، ثلاثَ مقالاتٍ تتعلّق بأطماع إيطاليا، ومسألة انتدابها على سوريا. وأشار الصلح إلى مؤامرةٍ يشارك فيها ممثّلو إيطاليا والمُبشِّرون الطليان في سوريا وفلسطين، فضلاً عن بعض الوطنيين السوريين[4].

(١) اسكندر رياشي، الأيام اللبنانية، بيروت: شركة الطبع والنشر اللبنانية، د. ت، صص٢٣١- ٢٣٢.

(٢) Anne - Lucie Chaigne, *Les rivalités franco - italiennes au levant 1918-1939*, maîtrise d'histoire, Paris, 1993, pp.89, 137, 143, 144 et 133.

(٣) جريدة الإقبال، ٦ تشرين الثاني ١٩٤٦.

(٤) Voir la revue *Oriente moderno Italie*, 1930, pp.114, 448.

بعد العام ١٩٢٩، أصبحت الدعايةُ الفاشيّةُ أكثَرَ تنظيماً في البلاد العربية. فمجلة آسيا الفرنسية أشارت إلى منشوراتٍ معاديةٍ لفرنسا وُزِّعت في بيروت. فيما أشارت مجلة أفريقيا الفرنسية، والتي كانت الأكثر انتشاراً في المغرب، إلى فاعلية الدّعاية الفاشيّة في أوساط العلماء الجزائريين. وتعترف المصادر الفرنسية أن العام ١٩٣٠ شهد الصعوبات أمام فرنسا في أفريقيا الشمالية، وتعترف هذه المصادر أيضاً بأن السياسة والدعاية الإيطاليتين لاقتا قبولاً ودعماً من شخصياتٍ وطنيةٍ مؤثِّرةٍ في العالم العربي، ويأتي شكيب إرسلان في مقدمتهم، إلى جانب إحسان الجابري، ومفتي القدس الحاج أمين الحسيني، وعبد الرحمن الشهبندر. لم يُنْكِر إرسلان اتّهامَهُ بالتواطؤ مع الحكومة الإيطالية ومساعدتها دعائياً في البلدان الإسلامية، بل أكّد هذا الأمرَ مُبرِّراً بأن هناك اعتباراتٍ تتعلّق بمصالح الشعوب العربية. وقد وَرَدَ ذلك في مقالاتٍ نُشِرَتْ له تباعاً في مجلة La Nation arabe، التي أصدرها في العام ١٩٣٠ في جنيف باللغة الفرنسية، وكذلك في مجلة الجمعية العربية في القدس، ومجلة الجمعية الإسلامية في حيفا. أوضح إرسلان في هذه المقالات بأنه مقتنعٌ بالسياسة الإسلامية لإيطاليا تجاه الأمم الإسلامية وممتلكاتها في أفريقيا. وفي العام ١٩٣٠ التقى شكيب إرسلان في مدينة طاتوان المغربية عدداً كبيراً من الوطنيين المغاربة، الذين أطلقوا حملةً في كل العالم الإسلامي ضد السياسة الفرنسية في المغرب[١].

وفي العام نفسه، تولّت مجلة La Nation arabe نَشْرَ الاحتجاجات التي أطلقها الوطنيون المراكشيون ضد الظهير البربري. وأدّى ذلك إلى غضب الصحافة الفرنسية، التي اتّهمت المجلةَ بالعمل ضد فرنسا. وأشارت صحيفة Le temps في عددها الصادر في تشرين الثاني ١٩٣٠، أن الوفد السوري الفلسطيني بجنيف يثير المسألة البربرية، ويبثُّ الدعاية في صفوف الطّلَبة المراكشيين في باريس. وقد فنّدَ الأمير شكيب إرسلان، رئيس تحرير مجلة La Nation arabe، السياسة الاستعمارية الفرنسية في الأقطار المغربية بمقالاته التي كان ينشرها فيها. وتابعت المجلة تَطَوُّرَ الأحداث في المغرب العربي خلال فترة صدورها من سنة ١٩٣٠حتى توقُّفِهَا في نهاية سنة ١٩٣٨.

وكان لشكيب إرسلان تأثيرٌ على عددٍ من قادة الحركات الوطنية المغربية، ومن أبرز هؤلاء: معالي الحاج، واحمد بالفريج، ومحمد الغاسي، ومحمد حسن الوزاني. وكان

(١) J.L. Miege, Op. cit., pp.169, 170 et 171.

الأخير سكرتيراً للأمير سنة ١٩٣٢ ولمدة عام. كما اتّصل الأمير إرسلان منذ سنة ١٩٣٥ بعلال الفاسي، وعبد السلام بنونه، ومحمد داود[١].

إعدامُ عمر المختار يُوتِّرُ العلاقةَ بين موسوليني وإرسلان

سعى الدُّوق موسوليني لكسب ثقة المسلمين، وقد حقَّقَ نجاحاتٍ في هذا المجال، إذ توافق مع اللجنة السورية والفلسطينية، المُمثَّلةِ بشكيب إرسلان وإحسان الجابري، على بعض القضايا. لكن الولوجَ الفاشيَّ إلى قناعات المسلمين بدّده تزايدُ العنف الإيطالي تجاه انتفاضة الشعب الليبي، والذي حصد، حسب الصحف التركية، أكثر من ٢٦ ألف مجاهدٍ، وكان لهذه الممارسات التعسّفية ردّاتُ فعلٍ قويةٌ في بلاد الشام، وعجِزَ قناصل إيطاليا في هذه المنطقة عن احتواء الغضب الشعبي الإسلامي. فقد شهدت بلاد الشام أكثر من محاولة احتجاجٍ ضد سياسة إيطاليا القمعية، إلى جانب الدعوات لمقاطعة البضائع الإيطالية. وحسب جريدة «البشير»، كان أعنف الاحتجاجات في مدينة طرابلس اللبنانية خلال شهري نيسان وأيار من العام ١٩٣١[٢].

وفي ١١ أيلول ١٩٣١، تفاقمت نقمة المسلمين في العالم العربي على إيطاليا الفاشية، بعد إلقاء القبض على قائد المقاومة الليبية عمر المختار، ومحاكمته محاكمةً صوريةً في مُدَّةٍ لا تزيد عن الساعة، وتنفيذ حكم إعدامه شنقاً أمام جمعٍ غفيرٍ من البرقاويين. لم يكن الاحتجاج على فضائح إيطاليا في ليبيا حالةً تقتصر على منطقةٍ عربيةٍ أو إسلاميةٍ، بل كانت حالةً شموليةً استحوذت على قدرٍ كبيرٍ من اهتمامات المجتمعين في المؤتمر الإسلامي- القومي العربي في القدس في ١٧ كانون الأول ١٩٣١، والذي حضره ١٤٥ عضواً من ٢٢ دولةً عربيةً وإسلاميةً، من العلماء والسياسيين والوطنيين. وقد مُنِعَ شكيب إرسلان وإحسان الجابري من حضور المؤتمر، على الرغم من أن إرسلان كان المُحرِّكَ لانعقاده، وكان حريصاً على مشاركة المسلمين من كل الطوائف. وقد بعث إرسلان والجابري رسالةً إلى المؤتمرين جاء فيها: «يشترك صوتان في الغرب اشتراكاً حارّاً في تمنيات العالم الإسلامي الصادقة بنجاح المؤتمر نجاحاً تامّاً، وإن الماضي لينظر إليكم، وإن المستقبل لينتظر من جهودكم أن تضع دعامةً متينةً يقوم عليها التعاونُ والتضامنُ بين جموع

(١) علي المحافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥، م. س، صص٣٠٨ـ٣٠٩.
(٢) علي عبد المنعم شعيب، الصراع الإيطالي الفرنسي على بلاد الشام ١٨٦٠ـ١٩٤١، م. س، ص٨٥.

شعوب محمد»(١). وكانت لمشاركة وفدٍ عامليٍّ لبنانيٍّ في مؤتمر القدس أهميةٌ عند إرسلان، الذي بعث من جنيف برسالةٍ إلى الشيخ سليمان ظاهر، جاء فيها «أبثُّكم سروري بحضوركم أنتم والأخ الشيخ أحمد رضا في مؤتمر الإسلام في القدس... فإن هذا ما كنا دائماً نتمنّاه من الاتّحاد، بعد أن صار الإسلامُ ما صار إليه في هذه الاوقات»(٢). كان لشكيب إرسلان رأيٌ بضرورة انعقاد المؤتمر رغم ما يمكن أن يواجهه من صعوباتٍ، فقد رأى أن انعقاده لم يكن ظاهرةَ صدفةٍ بسيطةٍ، بل نتيجة معاناةٍ إسلاميةٍ طويلةٍ، لأن نتائج الحرب العالمية الأولى لم تُبقِ شيئاً من الكبرياء الإسلامي، وبات بالتالي انعقاد مؤتمرٍ، وقيام تجمُّعاتٍ إسلاميةٍ، من الضرورات المُلِحّة. من هنا، دعا إرسلانُ البلادَ العربيةَ في الجنوب إلى التسريع بالخروج من الركودِ المُهْلِكِ لها، وذلك عبر الشّروع بإصلاحٍ جدِّيٍّ، وبما يسمح بتحقيق فدراليةٍ مع البلاد العربية المجاورة، وإلا ستعرِّض نفسها إلى مخاطر مميتة(٣).

رغم قيام روما بإبلاغ بريطانيا بموقفها، الذي يعتبر كلَّ تلميحٍ من جانب المؤتمر لسياستها في ليبيا عملاً غيرَ ودِّيٍّ، لكن ذلك لم يَحُلْ دون تناول نضال الشعب اللّيبي من قبل عددٍ من المشاركين في المؤتمر، والوقوف خمس دقائق إجلالاً لذكرى عمر المختار. وتضمَّنَت مُقرَّرات المؤتمر بنوداً خاصةً تستنكر الفظائع الإيطالية(٤). وجرت الموافقة على اقتراح شكيب إرسلان الذي أرسله من جنيف، وأكّد فيه على ضرورة مقاطعة بضائع كلِّ دولةٍ ترهق المسلمين عسراً، وتأليف لجنةٍ للمقاطعة، وكذلك مقاطعة المسلم الذي لا يتقيّد بقرارات المقاطعة(٥). كما ندّد شكيب إرسلان في جنيف، من خلال المقالات التي نشرها في صحيفة La Nation arabe، وفي الصحف العربية في مصر وسوريا، بالسياسة الإيطالية الاستعمارية في ليبيا.

فقد كتب مقالاً في مجلة «الفتح» المصرية يُندِّد فيه بالفضائح الوحشية التي ارتكبها الطليان في ليبيا، فكان له الصَّدى البعيدُ، ما أزعَجَ موسوليني وأركانَ دولته(٦). وفي أعقاب

(١) جريدة فلسطين، القدس، ٩ كانون الأول ١٩٣١.
(٢) مجلة العروبة، بيروت، كانون الثاني ١٩٤٧، ص٤٠.
(٣) Revue *La Nation Arabe*, Genève, novembre 1931, p.4.
(٤) علي شعيب، مؤتمر القدس وواقع التجاذب بين التيار الشعبي والقرار الرسمي، بيروت، مجلة المنطلق، آذار ونيسان ١٩٩٢، ص١٢٢.
(٥) بنبلفيت الشيباني، دور الشيخ عبد العزيز التعالبي في المؤتمر الإسلامي العام بالقدس سنة ١٩٣١ ونشر الوعي بالقضية الفلسطينية في تونس، جامعة دمشق، ١٩٩٨، ص١٤.
(٦) زهير الشاويش، شكيب إرسلان، ذكريات انطباعات، بحثٌ غير منشور قُدِّم في ندوة الأمير شكيب إرسلان في المعهد العالي للدراسات الإسلامية، بيروت: جمعية المقاصد، في ٢٧ و٢٨ تموز ٢٠٠٢، ص٢٢.

المؤتمر الإسلامي، أرسل أمين الحسيني، بصفته رئيساً للمؤتمر، توكيلاً إلى الوفد السوري في جنيف (إرسلان- الجابري- الصلح) للدفاع لدى عصبة الأمم والدول الأجنبية والرأي العام الأوروبي. وقد قدَّم إرسلان فعلاً إلى مجلس عصبة الأمم، المنعقد في ١٠ كانون الأول ١٩٣١، معروضاً باسم الوفد، مُوقَّعاً بأسماء أعضائه الثلاثة، متعلِّقاً بهذه المسألة. وبين ما ينطوي عليه المعروضُ، تحذيرٌ من الخطر الذي يُمثِّلُهُ قانون الاستملاك الصادر سنة ١٩٢٤، على الأماكن المقدسة في فلسطين(١).

عودةُ التواصلِ بين إرسلان وموسوليني وردودُ الفعلِ العربية

سلك الدُّوق موسوليني سياسةَ استيعابِ ردّاتِ الفعلِ العربيةِ على أحداث ليبيا. وهي سياسةٌ تشبه إلى حدٍّ كبيرٍ سياسة الدول الغربية الاستعمارية تجاه العالم العربي، وترتكز على أن الحياةَ مستمرةٌ، وحركَتَها صراعٌ بالاتفاق والاختلاف، لأن الدول لها مصالح ثابتةٌ، وسياساتٌ متغيِّرةٌ مع الظروف. أما النُّخَبُ العربيةُ المُدرِكةُ لضعفها تجاه القضايا العربية، فكانت تنتهج سياسةً تقوم على معرفة كيف تضحّي بالقليل لكي تبقى.

في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩٣٢، صدرت في روما مجلة «المستقبل العربي» بهدف المدافعة عن قضايا العرب. وفي لقاءٍ مع رئيس الحركة الصهيونية وايزمان، دافع موسوليني عن مصالح العرب بالقول «يوجد عربٌ ولن يكون بالإمكان طردهم من بلادهم»(٢).

منذ مطلع العام ١٩٣٤، شهدت العلاقات العربية - الإيطالية تحسُّناً ملحوظاً، واستطاع موسوليني استيعاب حالة الغضب العربية على أحداث ليبيا، إذ قام بتقديم نفسه كمُدافعٍ عن الإسلام في مناسباتٍ مختلفة. وشهدت تلك الفترةُ نشاطاً فاشيّاً ملحوظاً، إذ جنّدت الفاشيةُ منتسبين جُدُداً من المسلمين، ووزّعت في الوسط الإسلامي كرّاساتٍ تُبرِز المكتسبات التي ستحصل عليها البلاد الإسلامية الواقعة تحت الوصاية الإيطالية. تلازم ترميمُ العلاقات العربية- الإيطالية بجملة تصريحاتٍ وقرارات. فقد أعلن موسوليني أن إيطاليا لا تطمع بالاستيلاء على أراضٍ عربيةٍ، وليس لها أطماعٌ أخرى سوى إقامة علاقاتٍ تجاريةٍ وثقافية. جاء ذلك خلال لقاءٍ جمعه بوزير خارجية السعودية، فؤاد حمزة،

(١) أحمد بيضون، رياض الصلح في زمانه، بيروت: دار النهار، ٢٠١١، ص١٠٣.
(٢) J.L. Miege, Op.cit., p.168.

في روما. أعقب ذلك اتّخاذُ قرارٍ بإنشاء إذاعةٍ باللغة العربية في مدينة باري الإيطالية في العام ١٩٣٤، في سياق التقرّب من العرب وبما يخدم مصالح الفاشيّين[١].

استغلَّ شكيب إرسلان مناخَ التقارب العربي ـ الإيطالي، ورفع إلى الدُّوق موسوليني ثلاثَ مذكّراتٍ حول فلسطين وسوريا وليبيا، وقد اعتُبِرَتْ الأجوبةُ على تلك المذكّرات إيجابيةً، ولا سيما في الموضوع الليبي[٢]. وتمكّن إرسلان، يرافقه إحسان الجابري، من مقابلة موسوليني، والتحدّث معه عن القضايا العربية الثلاث. وبعث إرسلان إلى أمين الحسيني رسالةً، نشرتها مجلةُ «الجامعة الإسلامية» الصادرةُ في القدس في حزيران في العام ١٩٣٥، حول مباحثاته مع الدُّوق، وجاء فيها أنه (أي إرسلان) مقتنعٌ بأن إيطاليا لن تعامل العرب كما تعاملهم فرنسا وبريطانيا، وأن الدعاية الإيطالية في البلاد العربية سوف تشتدُّ قريباً نظراً لقرب اندلاع حربٍ عالمية[٣].

وفي إطار تشجيع التنظيمات الطّلابية التّحريرية في إيطاليا وأوروبا، فقد عُقِدَ المؤتمر الثاني للطّلبة الشرقيّين في روما في أوائل العام ١٩٣٥، وحضره مندوبون عن ثلاثين جمعيةً ومنظمةً طلابيةً، وقد افتتحه موسوليني بالقول: «الشرقُ يجب أن يحيا»[٤]. أسفر المؤتمر عن تشكيل مجلسٍ للمؤتمِرين، ولجنةٍ تنفيذيةٍ، ومكتبٍ دائم. وضمَّت اللجنة التنفيذية عضواً عربياً هو الأمير شكيب إرسلان. كما ضمَّ المكتب الدائم عضواً عربياً هو غالب سالم. وقد استقبل موسوليني وفداً يمثّل المؤتمر، كان شكيبُ إرسلان أحدَ أعضائه[٥]. إلى جانب ذلك، أنشأ النظام الفاشيُّ كونفدراليةً للطّلاب العرب في روما، الذين أصدروا مجلةً باللغة الفرنسية La jeune Asie. وقد شهد العام ١٩٣٤ تزايداً ملحوظاً في عدد الرحلات الترفيهية المنظّمة إلى إيطاليا بأسعارٍ مُخفَّضةٍ جداً، لا تتجاوز عشر ليراتٍ سوريةٍ، للشباب تحت العشرين من الجنسين، والمرتَدِينَ قمصاناً لونها أسود[٦].

(١) Edmond Rabbat, *Unité syrienne et devenir arabe*, Paris, 1937, p.369.

(٢) J.L. Miege, Op.cit., p.170.

(٣) علي المحافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥، م. س، ص٤٥٦.

(٤) جريدة النهار، ٢٩ كانون الاول ١٩٣٣.

(٥) علي المحافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥، م. س، ص٤٥٠.

(٦) علي شعيب، مؤتمر القدس وواقع التجاذب بين التيار الشعبي والقرار الرسمي، م. س، ص٤٥٠.

موقفُ إرسلان من انتقادِ مواقفه

ما حصل من تغيّراتٍ في كلٍّ من إيطاليا وألمانيا، وبقيادتي موسوليني وهتلر، كانت تصل أخبارُه إلى العالم العربي، فاستساغها بعقليّته التقليدية، وتمنّاها لنفسه. ولم يكن غريباً أن يتناقل العربُ بإعجابٍ أخبارَ هذه الدول، وبروزها على المسرح السياسي، ويتابعوا ما حقّقته من إنجازاتٍ، ويعطوها تمنياتهم ومحبتهم نكايةً بأعدائهم في فرنسا وبريطانيا. ولم تجد النّخب العربية حَرَجاً في تنمية العلاقات الودّية مع زعماء الفاشية والنازية من أجل الدفاع عن قضايا العرب الوطنية، وإقناع أصحاب الرأي والنفوذ بعدالتها.

من جهةٍ أخرى، عُرِفَ عن المصلحين العرب والمسلمين في أوائل القرن العشرين، أمثال جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وشكيب إرسلان وغيرهم، عدم استساغتهم ما يُسَمَّى حالياً بالجماهير، إذ كانوا يَنعتُون هذه الفئة بالدهماء، ولا يمكن الوقوفُ على رأيها.

تداولت الصُّحفُ المحليةُ والأجنبيةُ أخباراً عن مدى التواصل العربي مع روما الفاشيّةَ وبرلين النازيّة، ولا سيما الدور المميّز للأمير شكيب إرسلان، الذي تعرّض لهجومٍ عنيفٍ، بهدف تشويه ممارساته السياسية أمام الجمهور العربي، وذلك بإيعازٍ من مصادر فرنسيةٍ وبريطانية. وقد أثارت علاقاته بإيطاليا تحفّظاً لدى عددٍ من الصحف الفلسطينية، مثل صحيفة «فلسطين»[١]. ونشرت جريدة «لسان الحال» في تواريخ متتاليةٍ من العام ١٩٣٥، ما تعرّض له الأمير شكيب إرسلان من افتراءاتٍ بشأن علاقته بموسوليني، وردوده حول حقيقة هذه العلاقة.

وفي ١٩ نيسان، نشرت صحيفة «ألف باء»، تحت عنوانٍ كبيرٍ «وثيقةٌ خطيرة»، كتاباً زعمت أن مراسلها في فلسطين قد أرسله إليها بالهاتف. والكتابُ مرسلٌ من الأمير شكيب إرسلان إلى الحاج أمين الحسيني، يطلب إليه فيه توسيعَ الدّعاية الإيطالية في البلاد العربية، وبثَّها بمختلف الوسائل. ويقول الأمير في آخر كتابه إنه قد كتب إلى رياض الصلح ليتولّى تنشيط الدّعاية الإيطالية في البلاد السورية، وإنه قد كلَّفه بأن يقابل الحاج أمين الحسيني لِيُعطيَهُ التعليماتِ اللازمةَ.

(١) عبد الرحمن عبد الغني، ألمانيا النازية وفلسطين ١٩٢٣ ـ ١٩٤٥، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٣٥، ص٤٦١.

وقد ذهب الناس في تفسير هذه الوثيقة الخطيرة مذاهبَ شتَّى، وأكثرهم ذهب إلى أن إبعاد رياض الصلح إلى القامشلي، ربما كان تحت تأثير هذا الكتاب، الذي أخذته «ألف باء» من مرجعٍ آخر غير مراسلها في فلسطين.

وفي ٢٤ نيسان، انقسم الرأي العام العربي حول رسالة الأمير شكيب إرسلان:

- تجزم جريدة «الجامعة الإسلامية» بأن الكتاب مصدره خطُّ الأمير وتوقيعُه، فيما تقول جريدة الجامعة العربية بوجود تزوير.
- في ٢٦ نيسان، بعث شكيب إرسلان رسالةً يُكذِّب خبرَ الوثيقة، وأنه عازمٌ على إقامة دعوى ضد المُزوِّرين.
- في ٢٧ نيسان، جاء في العدد الأخير من مجلة (الأندلس الجديدة) الصادرة في البرازيل، نقلاً عن نجيب العسراوي، حيث قال: «وصلني من الأمير أن الحكومة الإيطالية صلّحت أغلاطَها مع العرب مؤخَّراً، وعزلت صاحبَ فظائع طرابلس الغرب، وأعادت بقيةَ عرب الجبل الأخضر إلى أراضيهم، بعد أن كانت أبعدتهم إلى وادي سرت. كما أوعزت إلى سفرائها أن يُكرِّموا العربَ، ويساعدوا المسلمين على إشادة المعابد، ودعت إلى روما كثيراً من الشباب العربي لتعليمهم على نفقتها، وعقدت صلحاً مع الوفد السوري بطلبٍ من زعيمها موسوليني.
- في ١ أيار، نفى المفتي أمينُ الحسيني وعادلُ إرسلان الأخبارَ المُتعلِّقةَ بكتاب الأمير شكيب إرسلان.

وفي ٢١، ٢٢، ٢٣ أيار، نشرت جريدة «لسان الحال» نصَّ كتاب الأمير إلى جميل بيهم، يُفنِّدُ فيه مزاعمَ التُّهمِ الموجَّهةِ إليه، فيقول «اجتمعتُ بموسوليني في ١٢ شباط ١٩٣٤ لمدة عشر دقائق، وقابلتُهُ في ١٥ شباط لمدة نصف ساعةٍ، قدّمت له ثلاثَ مذكراتٍ بشأن القضية السورية والفلسطينية والطرابلسية»، وإن ذهابه إلى عواصم القرار ليس معناه الدعاية لهم. فإن إيطاليا لها مواقف عديدةٌ في جمعية الأمم تطالب باستقلال سوريا، كما أنه لم يسمع عن إيطاليا كلمةً واحدةً تدلُّ أنها مشتركةٌ في مشروع تهويد فلسطين. ومعلومٌ عند كل الناس أنه لَمَّا حصل ما حصل من فظائع في طرابلس، هاجمنا إيطاليا، وبدون أي تبجُّحٍ، وتبنّينا موقف المعارضة من موسوليني في مجلة «La Nation arabe». ويستطرد الأمير أنه هاجم موسوليني شخصياً عندما هاجمت القوات الإيطالية الثوارَ الليبيين وعذَّبتهم، ما أدَّى إلى قيام مندوب الدُّوق بزيارةٍ إلى الأمير يستعلم عن سبب هذه

الهجمات. وفي مكانٍ آخر يقول الأمير إن ذهابه إلى إيطاليا كان من أجل سوريا وفلسطين، وقطع العلاقة مع موسوليني بسبب الأحداث الطرابلسية، وإن نتيجة تدخُّله لدى موسوليني مُجدَّداً كانت عودة القبائل العربية إلى أرضها، بعد أن كان الجنرال غراسياني قد أخرجها من مواطنها في الجبل الأخضر، ووضعها ضمن الأسلاك الشائكة في صحراء سرت.

وفي ختام رسالته، لا ينكر الأمير إعادة تجديد العلاقة مع موسوليني، فيقول «على الأقل وجدنا زعيماً يريد أن يدخلَ في طريق الوئام، ويُنْسِيَ المسلمين ما مضى من العداوة، وأتى بأفعالٍ بارزةٍ للعيان تدلّ على هذه الإرادة...»، ويبرِّر الأميرُ عملَه بأنه جاء بناءً على رغبةٍ من زعماء طرابلس، الذين كانوا يبعثون الرسائل إليه لإيصالها إلى روما، وكذلك بناءً على رسائل مسلمي الحبشة التي تطالب بالمساعدة(١).

يُلاحظُ أن المعلومات التي وردت في كتاب شكيب إرسلان إلى جميل بيهم تصيب الحقيقة، لأنها تتقاطع مع ما كتبه الأمير في مجلته باللغة الفرنسية La Nation arabe، مع إضافةٍ أن تلفيقَ التّهمة له بالنسبة لعلاقته مع إيطاليا، هي من صنع الصهاينة الذين «موّلوا هذه البذاءة»(٢). هذا، ولم يكن الأميرُ يستسيغُ هجومَ البلشفيين في سوريا ولبنان على الفاشية، وقد أدرج ذلك في سياق الثأر للشيوعيين الذين وجّه إليهم موسوليني صفعةً قويةً في إيطاليا(٣).

بعد نجاح إيطاليا في غزو الحبشة، انعكس ذلك إيجابياً في نفوس الأكثرية العربية، إذ ثبت لدى هؤلاء عجزُ عصبة الأمم وبريطانيا عن حمايتهم. ووجدوا أن الوقتَ مناسبٌ للتحرُّك ضد التسلُّطِ الغربيِّ على بلادهم. كما اعتقدوا أن الحربَ بين الدول الأوروبية قادمةٌ لا محالة، ويمكن أن تكون فرصةً مناسبةً لتحقيق تطلّعاتهم في التحرُّر والاستقلال. وكان موسوليني واعياً لحقائق الوضع، إذ نظَّم بواسطة المعهد العربي في نابولي، دعايةً تنطلق من وعدٍ بالحرية لكل المسلمين الذين يَقبلون مساعدتَه(٤).

(١) جريدة لسان الحال، بيروت، ١٩ و٢٤ و٢٦ و٢٧ نيسان و٢١ و٢٣ أيار ١٩٣٥.
(٢) Revue *La Nation arabe*, Genève, n4, 1935, pp.280- 281.
(٣) Idem., octobre - novembre 1935, pp.458 et 459.
(٤) Homet Marcel, *L'histoire secrète du traité franco - syrien*, Paris, 1938, p.55.

أما في المغرب العربي، فقد وقفت الحركةُ الوطنيةُ من إيطاليا الفاشية موقفَ التحفُّظ والحذر، ورأت في الفاشية حركةً سياسيةً فاسدةً، واعتبرت إيطاليا دولةً استعماريةً لا تختلف في أطماعها التوسّعية، ونزعتها إلى السيطرة، عن فرنسا.

كما أثار موقفُ شكيب إرسلان المؤيِّدُ لإيطاليا غضبَ قادة الحركة الوطنية الليبية، ولا سيما سليمان الباروني. فقد كتب الزعيم الوطني الليبي مقالاً في صحيفة الرابطة العربية، اتّهم فيه الأميرَ شكيب إرسلان بالبراءة من مسلمي المستعمرات، وقال: «... دفع شكيبُ إرسلان بإحدى يديه طرابلس وبرقة، معلناً البراءة منهما، طلباً لرضاء إيطاليا، ودوام ابتسامة موسوليني الذي يتفانى في حبّه لأدنى مناسبةٍ...، ويدفع شكيب باليد الأخرى تونس والجزائر ومراكش والسودان، تودُّداً لفرنسا المسيطرة على بلاده، معلناً بذلك براءته من الجميع»[1].

بالمقابل، أثنى الحبيب بورقيبة على جهود شكيب إرسلان وتعاونه مع قادة الحركات الوطنية المغربية، بمقالٍ نشرته جريدة العمل التونسية في ٣ حزيران ١٩٣٧[2]. كما تناول هذه القضيةَ عبد الحميد بن باديس، فنشر مقالاً في صحيفته «الشهاب» في ١٢/١٢/١٩٣٧، بعنوان «مسألةٌ عظيمةٌ بين رجلين عظيمين»، دافع فيه عن الأمير شكيب إرسلان دفاعاً موضوعياً[3].

وفي أثناء الحرب العالمية الثانية، كانت إيطاليا تخشى من اتّفاق الحركة القومية العربية مع ألمانيا واستبعادها، لذلك طلبت من السنيور زامبوني مستشار السفارة الايطالية في برلين، الاتّصالَ برئيس الدائرة السياسية في وزارة الخارجية الألمانية في ١٠/٤/١٩٤١، وحثَّه على ربط البلاد العربية المشرقية بالنظام العالمي الجديد، وإدراجها ضمن منطقة النفوذ الإيطالي في البحر المتوسط[4].

لكن مداخلات الأمير شكيب إرسلان لدى المسؤولين الألمان، أسفرت عن رسالةٍ بُعِثَتْ إلى الحاج أمين الحسيني ورشيد عالي الكيلاني، من وزارة الخارجية الألمانية في ٤ نيسان ١٩٤١، تتضمَّن استعداد ألمانيا لأن تعترف باستقلال البلدان العربية المستقلة،

(١) علي المحافظة، موقف فرنسا وألمانيا وإيطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ ـ ١٩٤٥، م. س، ص٤٥٧.
(٢) م. ن، ص٣١٢.
(٣) م. ن، ص٤٥٧.
(٤) م. ن، ص٤٦١.

وحقِّ غير المستقل منها بالاستقلال، وترجو بقاء هذه الرسالة سرّيةً، وأنه جرى الاتصال اللازم بالحكومة الإيطالية التي وافقت على مضمونها[1].

جاء تطوُّرُ الأحداث في المشرق العربي ليُخْرِجَ نهائياً دولَ المحور من أيِّ تأثيرٍ لها في هذه المنطقة، بعد خسارتها الحرب العالمية الثانية.

خلاصة

يرجع الفضلُ في تكوين شخصية الأمير شكيب إرسلان علمياً وسياسياً، إلى عاملين اثنين، كان لهما الأثرُ الكبيرُ في حياته، وتوجيهه لما وصل إليه من الزعامة والرِّيادة.

الأول: تعليمُهُ على يدِ عالِمَيْنِ ـ جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده ـ حيث شبَّ على حُبِّ اللّغة والدِّين، فتكوّنت أُسُسُ شخصيته الأولى لغوياً ودِينياً.

الثاني: رحلاتُهُ العديدةُ، واتصالاتُهُ المتكرِّرَةُ برجالات العلم والصحافة والسياسة من العرب والمسلمين، دعَّمت فكرَهُ الإيمانيَّ، ووجَّهته إلى آفاقٍ وطنيةٍ وقوميةٍ ودينيةٍ أوسع.

من هذين العاملين تكوّنت شخصيةُ الإرسلاني العملاقة، التي لعبت دوراً بارزاً في معالجة القضايا العربية والإسلامية خلال تلك المرحلة. وكان دورُه أكثرَ بروزاً أثناء المنعطفات الخطِرة، التي كانت تمرُّ بها الحالتان العربية والإسلامية. وقد برهن على قدرةٍ عجيبةٍ في التَّفاني والعمل ونكران الذات، فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً.

وبفضل ذلك كسب ثقة الجميع، فاحتلَّ مكانةً مرموقةً في الأوساط العلمية والسياسية والوطنية.

كان من أوائل الدَّاعين للوحدة الإسلامية، التي كان يراها كفيلةً بقهر الاستعمار والتخلف، وضمان المستقبل. كان غير متحيّزٍ لفئةٍ دون أخرى، يعمل لمصلحة العرب والمسلمين، متمسّكاً بوحدة النضال والمصير، لا يعرف لنضاله حدوداً جغرافيةً أو بشريةً، ولا يبخل بجهدٍ، في إبداء رأيٍ، أو توضيح فكرةٍ، أو إسداء نصيحةٍ، أو مشاركةٍ في حدثٍ، يحاضر هنا، ويتوسَّط هناك، ويرنو إلى ما أبعد من هذا أو ذاك، يتنقَّل حيث أوجبت

(١) زهير مارديني، ألف يومٍ مع أمين الحسيني، بيروت: مجلة العرفان، مج٦٥، ١٩٧٧، ص٦٥.

الضرورة النضالية التي يؤمن بها. لذلك فإنه يتجاوز بتأثيرِهِ النضاليِّ البلادَ العربيةَ إلى رقعة البلاد الإسلامية الواسعة عبر رحلاته الكثيرة، فهو بحقٍّ الزعيمُ المفكِّرُ السَّيَّار.

كان شكيبُ إرسلان والنهضويون الأوائلُ يُدركون أن مركز الحضارة العالمية، انتقل هذه المرة من الشرق العربي الإسلامي إلى مكانٍ آخر، هو الغرب الحديث.

وصحيحٌ أن هذا الغربَ، أظهر وَجْهَهُ الاستعماريَّ والإلحاقيَّ الاحتلاليَّ في الممارسة وفي السياسات، ولكن الوعيَ التاريخيَّ لهذه المفارقة، وَلَدَى معظم مفكّري النهضة، كان حاضراً بقوة. وكان يلحُّ على التفريق بين حداثةٍ هي من قبيل الضرورة، وحتميةِ نهوضِ المجتمعات العربية التي تجمّدت فيها آلياتُ التقدُّم، وبين سياسات الدول الاستعمارية التي كانت تبحث عن أسواقها ومستعمراتها ومناطق نفوذها بشتّى الأشكال الانتهازية والقمعية والوحشية.

إن وعيَ هذه المفارقة في التاريخ، شكّل المنهجَ السائدَ في التفكير النهضويِّ العربيِّ، الذي ساهم في تأسيسه سياسيون مُتنوِّرون، وكتّابٌ، ومفكِّرون، وفنَّانون على امتداد العالمين العربي والإسلامي، منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواخر أربعينات القرن العشرين.

لم يكن تعاطفُ شكيب إرسلان مع الحالتين النازية والفاشية مخصوصاً به وحده في العالم العربي، بل شملَ معظمَ القوى السياسية، والنُّخب الفكرية.

ولهذا وجد شكيبُ إرسلان تفهُّماً لمواقفه عند الزعماء العرب آنذاك، ما سمح له بالتدخُّل في حلِّ أكثر من قضيةٍ بينهم. ومن مواقفه المشهودة، انتدابه مع أعضاء وفد السلام بين المملكة العربية السعودية واليمن سنة ١٩٣٤، فَكُتِبَ لهذا الوفد التوفيقُ، وتوقفت الحرب بين البلدين المتجاورين، وعُقِدَت معاهدةُ الصّلح.

